

التصور الفكري للأزمة الحضارية ومنهجية المعالجة

عند مالك بن نبي

الدكتور: حسان عبدالله حسان

جامعة دمياط – مصر

تمهيد:

تهتم هذه الورقة بتحليل الدرس المعرفي والمنهجي للأزمة الحضارية لأمتنا ومعالجتها عند مالك بن نبي، من خلال محورين أساسيين:

المحور الأول: التصور الفكري للأزمة الحضارية عند مالك بن نبي، أي مرحلة تشخيص الداء الذي تعاني منه الأمة وأسبابه، والتي تنقسم بدورها إلى عاملين هما العوامل الداخلية الذاتية، والثاني: العوامل الخارجية المتمثلة في استعمار.

المحور الثاني: منهجية المعالجة أو سبل الخروج من الأزمة الحضارية عند مالك بن نبي، والتي قسمت أيضا إلى مرحلتين متكاملتين، الأولى، مرحلة "التخلية" من العناصر التي أحدثت الأزمة والتي ما زالت متأصلة في البناء الفكري والتربوي للمسلم المعاصر، والتي حددها مالك في إحدى عشرة عنصراً تحتاج إلى هدم و تخلية، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة " التخلية " أو البناء الحضاري للأمة بغرس عناصر ذلك البناء الحضاري في برامجها الفكرية والتربوية والثقافية والتي استخلصنا منها سبعة عناصر جوهرية تمثل أعمدة ذلك البناء المنشود.

هذه الورقة تهدف بالأساس إلى إشاعة التنوير الفكري بأفكار مالك بن نبي في البناء الحضاري، وحاجة أمتنا إلى هذه الأفكار سواء كانت في مرحلة الضعف-كما هو حادث- أو مرحلة البناء كما هو مأمول إن شاء الله. كما تهدف الورقة إلى إبراز منهجية مالك بن نبي في التشخيص لداء الأمة، وكذلك منهجيته في وصف الدواء الناجع من صيدلية الأمة ونموذجه المعرفي الحضاري التوحيدي.

1 -التصور الفكري للأزمة الحضارية ومنهجية المعالجة عند مالك بن نبي:

يرسم مالك بن نبي خطوطاً عريضة للأزمة الحضارية التي يعيشها العالم الإسلامي، تبدأ من غياب الشروط الزمنية والنفسية لتطور المجتمع وتنتهي بتمظهر هذا الغياب في السلوك الاجتماعي للأفراد. ويحلل عناصر هذه الأزمة التي بدأ يدركها منذ أن استيقظ وعيه وهي

اعتبارات تكون في جملتها المظهر المرضى، و تتمحور عناصرها حسب طبيعتها الاجتماعية والنفسية في الشكل الخطي التالي.

شكل رقم (1) يبين تطور الأزمة الحضارية¹

تأخر في المجال الاجتماعي، وفي الشروط الراهنة لتطور العالم العام



يترجم باضطراب في المجال الأخلاقي



هذا الاضطراب يترجم بدوره في سلوك الفرد

ويعمل مالك أسباب غياب الشروط النفسية والزمينية اللازمة لتطور المجتمع والأمة " بأنه حالة ناتجة عن أزمة في (عالم أفكار) العالم الإسلامي الذي يعيش حالة من التخلف عن أداء رسالته، فالتخلف عند مالك ليس تخلفاً عن الآلات والصناعات وإنما هو تخلف عن أداء المسلم لرسالته، وإن كان هذا الأول تابع وإحدى نواتج التخلف الثاني. "قأزمة العالم الإسلامي لم تكن أزمة في الوسائل؛ وإنما في الأفكار، ولكي نتغلب على هذا المرض علينا أن نكتشف طريق الأمة المرشدة"². ونشير فيما يلي إلى أهم جوانب الأزمة الحضارية كما يتصورها مالك بن نبي:

1- اختلال العالم الثقافي:

ويتضح هذا الاختلال في غياب التوازن في العالم الثقافي (عالم الأفكار - الأشخاص - الأشياء) وهو ما من شأنه أن يؤدي إلى طغيان عالم على آخر، أو أن تستبدل الأدوار بين العوالم، أو يغيب دور عالم فتغيب وظيفته في البناء الحضاري وهذا الخلل يحدث -أيضا- عندما "يكون النشاط مركزاً على الأشياء أو على الأشخاص أو على الأفكار... هنا يكون ثمة إخلال بالتوازن الذي يميز التطور التاريخي لمجتمع ما، هذا الإخلال بالتوازن يعكس إفراطاً ما، وكل إفراط هو ضرب من طغيان نشاط على حساب نشاطات أخرى"³.

ويرصد مالك بن نبي أهم صور الاختلال في العالم الثقافي والذي يتمثل في الأصعدة التالية⁴:

على الصعيد القيمي: تمحور عالم الثقافة حول الأشياء حيث تحتل الأشياء القمة في سلم القيم، وتتحول - خلصة - الأحكام النوعية إلى أحكام كمية دون أن يشعر أصحاب تلك الأحكام بانزلاقهم نحو (الشيئية): أي نحو تقويم الأمور بسلم الأشياء.

على الصعيد الاجتماعي: يتم التصدي للمشكلات - أيضاً - في جانبها الكمي، والحلول التي تهمل الجانب النوعي تصاغ بعبارات كمية.

على الصعيد الاقتصادي: تستلب الشيئية وطغيان الأشياء قدرات المجتمع في ميادين أخرى، خصوصاً ميدان التخطيط عندما يواجه بلد ما مشكلة التخلف، إما باستثمار رؤوس أموال أجنبية، أو بزيادة معدل الضرائب التي تشل كل أوجه النشاط الفردي بأن تمهد لقيام نظام ضريبي تفصيلي.

على الصعيد السياسي: يعاني العالم الثقافي من هيمنة الفكرة الوثنية، إن عبادة (الرجل السماوي) كعبادة (الشئ الوحيد) منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي المعاصر، وتكون أحياناً سبب ما نشهده من حالات إفلاس سياسي مذهل. إن تناقص الفكرة والوثن قد ضمن بصفة عامة للاستعمار نجاحه الباهر في الإجهاض السياسي في بلادنا، مستخدماً غالباً متقفينا أنفسهم.

على الصعيد الأخلاقي: عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما، هناك خطر مزدوج: فسائر أخطاء الشخص ينعكس ضررها على المجتمع الذي جسد مثله الأعلى. وسائر انحرافات ذلك الشخص تترصد كذلك في خسائر، وتكون هذه الخسارة إما في رفض للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في ردة حقيقية يعتقد عبرها بإمكانية التعويض عن الإحباط باعتناق مثل أعلى آخر. وفي كلتا الحالتين فنحن نستبدل دون أن ندري مشكلة الأشخاص بمشكلة الأفكار .

2- المشكلة الفكرية:

يركز مالك بن نبي في تصوره للأزمة الحضارية وما يرتبط بها من عناصر مختلفة على المشكلة الفكرية التي يعاني منها العالم الإسلامي في عصر ما بعد الموحدين * " إن الجانب الفكري هو الأساس في المشكلة التي نحن بصدها إن الأفكار لا تتمتع في المجتمع الإسلامي بقيمة ذاتية، تجعلنا ننظر إليها بصفتهما أسمى المقومات الاجتماعية، وقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها. وهذه الثغرة تعود في تكوينها، إلى شيء من التخلف في تطورنا الاجتماعي"⁵.

وبناء على هذا الاعتقاد المعرفي يعيد مالك تعريف المجتمع المتخلف، "فالمجتمع المتخلف ليس موسوماً حتماً بنقص في الوسائل المادية (الأشياء)، وإنما بافتقاره للأفكار. يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفاعلية، وفي عجزه عن إيجاد غيرها. وعلى الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق"⁶.

والخلل الموجود في (نظام الأفكار) في العالم الإسلامي يترتب عليه بالضرورة غياب وسائل
الفاعلية، والتي من أهمها تأسيس شبكة للعلاقات الثقافية، والتي لم تتكون بعد في المجتمع
الإسلامي الراهن، وهو ما يتجلى في صورتين⁷:

الصورة الأولى: تدلنا على أن المجتمع الإسلامي يفقد شبكة الاتصالات الثقافية فالشخصيات التي
يمكنها المساهمة مادياً في القيام بمشروع كهذا لا تشعر بأهميته.

الصورة الثانية: تكشف لنا عن ضعف الطبقة المثقفة نفسها في البلاد العربية والإسلامية .
ويحمل "مالك بن نبي" "المثقف المسلم" مسؤولية الخلل والاضطراب الموجود في نظام الأفكار،
وغياب وسائل الفاعلية، وذلك بعدم قناعاته بالقيمة الاجتماعية للأفكار وهو ما جعل المثقف المسلم
"يدور في فلك بعض الأوثان بدلاً من أن يكرس نفسه لخدمة الأفكار"⁸.

ويصف مالك جانب من دور المثقف في الأزمة الحضارية لا سيما ذلك "المتعالم" الذي بتر فكر
النهضة فلم ير في مشكلتها إلا حاجاته ومطامعه، دون أن يرى فيها العنصر الرئيسي لما في
نفسه من كساد... هذا المتعالم مريض ولا سبيل إلى مداواته؛ لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم
ليصيره ضميراً فعالاً؛ بل ليجعله آلة للعيش، وسلما يصعد به إلى منصة البرلمان. وهكذا يصبح
العلم مسخاً وعملة زائفة، غير قابلة للصرف، وأن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل
المطلق⁹.

ومن النتائج التي ترتبت على الخلل في (نظام الأفكار) وغياب (وسائل الفاعلية) وتشوه
دور (المثقف المسلم) في العالم الإسلامي، سيادة حالة التوهم والوهن في الإعداد للنهوض
الحضاري والتي استبدلت التكديس بالبناء مما جعلها تعيش فترة أكبر، وتفقد الجهد والوقت إلى
حد الإسراف في هذا الإعداد الحضاري الذي لم يتم، ولن يتم في ضوء خيار "التكديس" القائم
على اختيار عقلية التوهم والوهن.

وهذه الإشكالية أوقعت المجتمع الإسلامي في تناقض واضح بين التكديس والبناء و بين
الاستعارة والفاعلية، "حيث أورث ذلك تدهوراً في قيمة الأفكار الموروثة، وتدهوراً في قيمة
الأفكار المكتسبة، وقد حملا أفدح الضرر في نمو العالم الإسلامي أخلاقياً ومادياً. وإن هذه
النتائج الاجتماعية لذلك التدهور نصادفها يومياً في صورة غياب لكل فاعليه، وقصور في
مختلف أنشطتنا الاجتماعية، فمن ناحية فإن الأفكار التي أثبتت فاعليتها في بناء الحضارة
الإسلامية منذ ألف عام تبدو اليوم عديمة الفاعلية، لأنها فقدت التصاقها بالواقع"¹⁰.

ومن ناحية أخرى فإن أفكار أوروبا التي شيدت النظام الذي نسميه الحضارة الأوروبية،
فقدت بدورها الفاعلية في العالم الإسلامي المعاصر. فسلوكنا اليوم يرتبط بتكر مزدوج. فالمسلم

فقد الاتصال بالنماذج المثالية لعالمه الثقافي الأصلي. وهو لم ينشئ كما فعلت اليابان الاتصال الحقيقي بالعالم الثقافي الخاص بأوروبا، ونحن اليوم نقاسي هذا التدهور المزدوج، فالأفكار المخدولة في هذا الجانب أو ذاك لها انتقام رهيب. وإن انتقامها المحتوم هو ما نعانى نتائجه اليوم¹¹. الأسى الذي يبديه مالك هنا بالأساس لافتقاده المتقف المسلم الارتباط بنموذجه الأصلي ورصيد تجربته الحضارية، وهو ما أفشله أيضاً في الاتصال بالواقع المعاصر والتطور الحضاري الحادث في الغرب؛ وذلك لافتقاده أدوات الاستيعاب الحضاري والتجاوز الذي يمد به نموذجه المعرفي الأصلي وتجربته الحضارية، ومن ثم يصبح المتقف الذي وقع في أسر الاستلاب ينطبق عليه حديث النبي ﷺ "إن المنبت لا ظهر قطع ولا أرضا أبقى".

وتنعكس الحالة الفكرية والخلل الموجود فيها على العالم الاجتماعي، وهو من أخطر وجوه الأزمة والذي يستدعي فيه مالك حديث "الغناء" ويرى أنه تصوير لحالة المجتمع عندما "يتحلل كيان المجتمع تحلاً كلياً، و عندما يحتل المرض جسده الاجتماعي في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية... ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد. وأكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية... فالعلاقات الاجتماعية تفسد عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين تبرر المواقف الفردية والخيارات الشخصية"¹².

وينتقل مالك بن نبي من وصف للأزمة إلى تحديد الأسباب التي أدت إليها، والتي يراها تنحصر في قسمين، الأول: العوامل الداخلية، والثاني: العوامل الخارجية، وكما سنرى فإنه يرد في النهاية العوامل والأسباب الخارجية إلى الداخل، وما أصاب الذات المسلمة من وهن جعلها عرضة لأي داء، وفي ذلك يقدم مالك تصوراً يمكن أن نطلق عليه "نظرية في النقد الذاتي والمساءلة الحضارية". في هذه النظرية يطرح مالك فكرة "الأوهام الثلاثة" التي وقع فيها "العالم الإسلامي" منذ الأفرول الحضاري و الذي يحدده زمنياً بزوال "دولة الموحدين"، وهذه "الأوهام" أو "الأساطير" المسيطرة على عقل المسلم ووجدانه ونزوعه تسببت في استمرار حالة "الأفول". وهذه الأساطير أو الاعتقادات المتوهمة ركن إليها المسلم لأنها أقل جهداً وتكلفة نفسية وزمنية في تفسير حالته الحضارية.

وتتحدد هذه الأساطير في الاعتقادات المتوهمة التالية¹³:

1- لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون.

2- لسنا بقادرين على أداء العمل لأننا فقراء.

3- لسنا قادرين على الفعل الحضاري لأن الاستعمار في بلادنا.

هذا "الثالث" المتوهم "الجهل، الفقر، الاستعمار" ساد عقلية: التخلف: عن أداء الرسالة، والتي يسميها مالك بن نبي، عقلية عصر ما بعد الموحدين، التي حلت محل العقلية الفاعلة صاحبة الرسالة، وهو ما أدى إلى تصادم بين "مسلم ما بعد الموحدين" و "نماذج الرائدة / المثالية" في هذه الرسالة. والمجتمع المسلم هو بالتحديد في هذه اللحظة في مواجهة المشكلة في وجهيها؛ إنه يعاني من انتقام النماذج المثالية لعالمه الثقافي الخاص به من ناحية، ومن ناحية أخرى لانتقام رهيب تصبه عليه الأفكار التي استعارها من أوروبا¹⁴.

ويحمل مالك الذات المسلمة في الترويج لهذه الأساطير/ الأوهام وعدم وجود الرغبة الذاتية لمواجهتها مع امتلاك قدرات وإمكانات وأدوات المواجهة. "قال الجهل واقع وأثر من آثار الاستعمار، ولكن ماذا فعلت الدوائر المتقنة، وماذا فعلت بثقافتها ضد الأمية العامة، إن مضاعفة العدم لا تؤتي غير العدم، فإذا ما كان المتعلم نفسه عديم التأثير، وإذا لم يكن لتعليمه أثر اجتماعي، فإن أسطورة (الجهل) تصبح أسطورة خطيرة، إذ هي تحجب خلف مشكلة الإنسان الأمي، مشكلة أعمق لإنسان ما بعد الموحدين - جاهلاً كان أو متعلماً"¹⁵.

وأسطورة الفقر ليست بأقل خطراً، وينبهنا مالك لأن نلتفت إلى دور الفرد المسلم الثري ومدى فاعليته الاجتماعية إنها لا شيء، لقد زاد أغنياء المسلمين على فقرائهم في العطل على الرغم مما يملكون من ثروات. والأسطورة الثالثة هي أسطورة الاستعمار، وهي تعبير عن العجز الداخلي الذي يعاني منه الفرد المسلم، ويخلص مالك إلى أن هذه الأساطير ناتجة عن "سبب داخلي ناتج عن نفسية الناس، وأدواتهم وأفكارهم وعاداتهم، أي كل ما يُكوّن عقل ما بعد الموحدين، وهو في كلمة واحدة ناتج عن قابليتهم للاستعمار"¹⁶.

فالسبب الرئيسي في الحالة التي يحياها العالم الإسلامي نتجت عن ذلك "المريض الحقيقي وهو الإنسان المستعمر، الإنسان الذي أصابه داء القابلية للاستعمار"¹⁷، "هذا الإنسان الذي يشكل نواة مجتمع ما بعد الموحدين في كل صورة - باشا أو عالماً، مزيفاً أو متقفاً، مزيفاً أو متسولاً - فإنه يعد عموماً عنصراً جوهرياً يضم العالم الإسلامي من مشكلات منذ أقول حضارته، وهو عنصر لا ينبغي أن يغيب عن أنظارنا عندما ندرس نشأة المشكلات وحلولها التي تشغل اليوم الضمير الإسلامي"¹⁸.

3- عصر ما بعد الموحدين (عصر الأزمة الحضارية):

يرى مالك أن الأمة المسلمة عندما دخلت عصر ما بعد الموحدين دخلت في نفس الوقت عصر الأزمة الحضارية، هذا العصر الذي يُحمّله مالك كل أسباب أزمتنا بما يحمله من عناصر وأفكار

هدامة، غير صالحة، بل يقاوم الأفكار الصالحة ويشكل عقبة في طريقها" مجتمع ما بعد الموحدين: هو المجتمع الذى أصبحت أفكاره المطبوعة في حالة تشويش، كفيلم أو أسطوانة مسحت بالزمن، لا نجد عليها بواعث الحياة... والأفكار المطبوعة لا تعبر عن شئ كأسطوانة لم تعبر عن شئ، كأسطوانة لم تحتفظ بأثر سوى أنغام انفصلت عن أفكارها التي بقيت على أسطوانة عالم ثقافي آخر. وهذه الأفكار المطبوعة تمثل مادة ثقافية : هي أيضاً أكثر غموضاً، وعاجزة عن توفير طرائق عملية فعالة¹⁹.

عصر ما بعد الموحدين -أيضا- أصيبت فيه الشخصية المسلمة بالنظرة الجزئية لقضاياها وأزماتها الحضارية، وغياب الرؤية الكلية الشاملة التي اتسمت بها الشخصية المسلمة في أوج ازدهار الحضارة الإسلامية مستمدة ذلك من نموذجها المعرفي التوحيدي "إن روح عصر ما بعد الموحدين، المصابة بالذرية (Atomisme) لا تسلك سبيل التكامل بانتهاج التراكيب التآلف (synthese)، فالنزعة الذرية هي قفزة البرغوث من تفصيل إلى تفصيل: بحيث لا تسمح أن ترى في مجموعة من التفاصيل المعطاة وضعا يبرز بالتحديد مشكلة مرحلة الاطراد الثوري. وبهذه الطريقة سيظل التفصيل مستقلاً عن الموقف الموضوعي الذي نعيشه؛ بحيث يضاف إلى وضع شخصي؛ كالحبة التي تضاف إلى مسبحة أحلامنا²⁰.

ويرسم مالك بن نبي صورة لإنسان ما بعد الموحدين، صفاته وأحواله النفسية والاجتماعية، باعتباره المسئول الأول عن الدخول في مرحلة ما بعد التحضر "الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، والذي يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين... لم يكتف بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي، فبلغنا ذاته أيضاً²¹.

4- وهن الدفعة القرآنية والفصام في الشخصية المسلمة:

وينتقل مالك بن نبي إلى بُعد آخر يرصد فيه بالتحليل والنقد أسباب "الأفول" و"الأزمة" الحضارية، وهى الأسباب الإيمانية، أو فعالية الإيمان والتي بدأت بوهن الدفعة القرآنية في أعماق الشخصية المسلمة وتكوينها النفسي والفكري والاجتماعي "... حتى إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي، كما يتوقف المحرك عندما يستنزف آخر قطرة من الوقود. وما كان لأي معوض زمني أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية، ألا وهو الإيمان²².

لا ينفي مالك بن نبي عن المسلم المعاصر تخليه عن عقيدته أو إسلامه، ولكنه يؤكد أن هذه العقيدة فقدت بعدها الجوهري وهو البعد الاجتماعي والذي ما فتئ الوحي أن يربط بين الإيمان بها وبين العمل الصالح في شتى صورته وأشكاله وإبعاده الكونية والعمرانية حتى غرس الفسيلة حال قيام القيامة و ظهور مشارف انتهاء الحياة على الكون، غاب عن المسلم فعالية الإيمان، فتحول إلى إيمان رهبان وصوامع، ونتج ذلك لانفصال المسلم عن مبادئ عقيدته وقيمتها التي يؤمن بها فظهر ذلك الانفصال بين سلوك المسلم في المسجد والشارع، وبين تأدية العبادات وتأدية المعاملات.

والمسلم حتى مسلم ما بعد الموحدين لم يتخل مطلقاً عن عقيدته فلقد ظل مؤمناً، وبعبارة أدق ظل مؤمناً متديناً، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي، وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملاً به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة²³.

وينبه مالك إلى أحد الأسباب التي أدت إلى هذا الانفصال بين المسلم ومبادئ عقيدته وقيمتها الجوهريّة هو غياب مبدأ "المراجعة والنقد الحضاري على المستوى الفردي والجماعي رغم أصالة هذا المبدأ النموذج التوحيدي وتطبيقاته النبوية" فلم يعد أحد يؤنب نفسه - على نهج عمر بن الخطاب - أو يتأثر من خطيئته، أو يبكي على ذنبه... وهكذا غرق المثل الأعلى الإسلامي للحياة والحركة، في فيضان من التعالي والغرور؛ بل في ذلك القنوع الذي يتصف به الرجل المتدين، حين يعتقد أنه بتأدية الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال، دون أن يحاول تعديل سلوكه أو إصلاح نفسه، فهو كامل كمال العدم، أو كمال الموت، وبذلك تختل حركة التقدم النفسي في الفرد والمجتمع²⁴. وقد تأثرت الحركة الإسلامية المعاصرة بغياب مبدأ المراجعة والنقد الذاتي في تكوينها التربوي والثقافي بما أفقدها القدرة على تطوير نفسها داخلياً حيث حلت "العصمة" على آراء القيادات وتغلغلت تحت مبدأ الثقة والطاعة العمياء فافقدوا البعد النقدي الحضاري الذي لأزم عملية بناء المجتمع الإسلامي الأول وازدهرت به حضارته هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أفقد الحركة القدرة على الاستجابة للمتغيرات الخارجية والتحويلات التاريخية الجارية وأظهرها بمظهر العاجز نظراً لنضوب التفكير والمراجعة على مستوى النظر والممارسة.

القسم الثاني: العوامل الخارجية

في القسم الثاني لتصوير مالك بن نبي للأزمة الحضارية نجده عاملاً رئيسياً خارجياً هو (الاستعمار) "الذى حاول أن يكف العالم الإسلامي عن التطور، ويضع العراقيل أمام حلول مشكلاته النفسية والاجتماعية، ليس هذا فحسب، وإنما ظهر - أيضاً - في صورة محسة، وأعمال سالبة تهدف إلى طمس قيم الفرد وإمكانات تطوره"²⁵.

يصف مالك بن نبي المناخ النفسي و الثقافي لاتصال العالم الإسلامي بالغرب و مآلاته على العقل المسلم والشخصية المسلمة التي ذابت في هوامش الإنتاج الحضاري للغرب مما أفضى إلى ازدواجية معرفية أصابت الشخصية المسلمة في تكوينها المعرفي والثقافي منذ ذلك الاتصال ولا زالت تصارعه حتى الآن، حيث" بدأ الاحتكاك العنيف مع الحضارة الجديدة والضمير الإسلامي في أسوأ شروطه، فأوروبا، رجحت قيم الفعالية على قيم الأصالة في أسلوبها الاستعماري، ومنذ ذلك الحين أضحي لعالمها الثقافي وجهان: وجه يلتفت إلى ذاتها بأخلاقيته الخاصة به، ووجه يتلفت نحو العالم، وهمه الوحيد الفعالية. والنخبة المسلمة التي تكونت عبر الجامعات الأوروبية لم تر غير وجهه، أما وجهها الآخر. فقد حجب عنها؛ كما يحجب وجه القمر الآخر عن سكان الأرض. من هنا كان في تكوينها خلط يرثى له بين مظهرين متميزين لفكرة واحدة: أصالتها، وفعاليتها. وهذا الخلط في نفسية النخبة المسلمة الحاضرة: هو النواة التي حولها تتجمع سائر دسائس ومناورات الصراع الفكري"²⁶.

والاستلاب أحد الآثار الفكرية الناتجة عن الاستعمار الذي استطاع اختراق جدارنا المعرفي، وإرغامه على أن يشتري (الأشياء) من الغرب "وتبنى مقايضة، ومعايير، وتمثل أفكاره حسناتها و رديئها والتي تهدد شخصية العالم الإسلامي وبقائه"²⁷.

2 معالجة الأزمة الحضارية عند مالك بن نبي

أولاً: منهجية "التخلية"

انشغل مالك بن نبي بمحورية "تشخيص الداء" وهو يرى أن المحاولات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي غفلت عن "التشخيص" الدقيق للداء الذي يعاني منه، و كانت سبباً في استمرار المرض، وكذلك التي شخصت "الداء" ولكن بحثت عن "الدواء" في "صيدلية" الحضارة الغربية أدت أيضاً إلى نفس النتيجة. " فمن الواجب أن نضع نصب أعيننا الحديث عن "المرض" لأن الشعور به لا يعنى بداهة معرفة الدواء... ينبغي دراسة مرضية للمجتمع الإسلامي، بحيث لا ندع مجالاً للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون"²⁸.

وأشار مالك في تحليله لأفكار الإصلاح في العالم الإسلامي إلى أنها كانت دائماً مجتزئة في نظرتها لمشكلة العالم الإسلامي ومرضه، فرأها البعض مشكلة في "السياسة" كالأفغاني، وآخرون في "العقيدة" كمحمد عبده... وهكذا، ورأى "أن هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض، بل يتحدث عن أغراضه"²⁹. وفي جانب آخر نجد أن بعض المحاولات الأخرى بحثت عن "العلاج" عبر الأفكار المستوردة دون تشخيص حقيقي للمرض "هذا شأن العالم الإسلامي: إنه دخل إلى صيدلية الحضارة الغربية طالباً الشفاء، ولكن من أي مرض؟ وبأي دواء؟"³⁰.

وفي منهجية التخلية يميز مالك بن نبي بين ثلاثة عوالم تُكوّن المجتمع / الأمة، الأول: عالم الأفكار، والثاني: عالم الأشخاص، والثالث: عالم الأشياء. ويرى بن نبي أن "عالم الأفكار" هو الذى يحمل الداء وأسباب أزمة العالم الإسلامي، وهنا تظهر مفاصل "التخلية" في النموذج المعرفي عند مالك بن نبي، إذ أن "عالم الأفكار" هو الذى يشكل جوهر عالمنا الثقافي، والعالم الثقافي يحمل "الثقافة" التي يراهن عليها بن نبي في التغيير الحضاري، والخطوة الأساسية في هذا النهج تتمثل في عملية "التصفية" للجوانب السلبية التي تحملها "الثقافة"، والتي يسميها مالك "الأفكار الممرضة" "التي تنقل الأمراض الاجتماعية من جيل إلى آخر لأن هناك أيضاً أنواعاً من الجراثيم الناقلة للأمراض الاجتماعية هذه الجراثيم الخاصة أفكار معدية، أفكار تهدم كيان المجتمعات، أو تعوق نموها. وعلى هذا نجد أهمية الأفكار في حياة المجتمع تتجلى في صورتين، فهي إما أن تؤثر كعوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك كعوامل ممرضة. بحيث تجعل النمو الاجتماعي صعباً أو مستحيلاً"³¹. ودعوة مالك الأساسية هنا هي "تصفية عالم الأفكار وتنقيته حيث يعدان الأساس الأول لأية نهضة"³².

ويحدد مالك منهجية "التخلية والتخلي" في طريقين رئيسيين، الأول: سلبي يفصلنا عن رواسب الماضي والثاني إيجابي يصلنا بالحياة الكريمة. ويضرب مثلاً بالدورة الأولى للحضارة الإسلامية والتي قامت بعملية "التخلية" السلبية، و "التخلية الإيجابية" "صدرت فيهما عن القرآن الكريم الذى نفي الأفكار الجاهلية البالية. ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية. وهذا العمل لازم اليوم للنهضة الإسلامية"³³. و التخلية عملية مهمتها القضاء على العناصر الهدامة أو المعوقة للنهوض الاجتماعي والحضاري، بما يساهم في تهيئة الظروف النفسية والزمنية لهذا النهوض المنشود، وهذا يقتضي أن يكون " أول واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة، ورم لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية، والداعية إلى الحياة. ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة"³⁴.

وفيما يتعلق بأهم عناصر التصفية أو التخلية التي يجب أن تضطلع بها الأمة في طريق إعدادها للبناء وتهئية المناخ والظروف النفسية والزمنية للتهيؤ الحضاري فيمكن إيجازها فيما يلي:

1- الأفكار الميتة / المميتة:

فكرة ميتة: "هي الفكرة التي خذلت الأصول، فكرة انحرفت عن مثلها الأعلى؛ ولذا ليس لها جذور في العصارة الثقافية الأصلية"³⁵. "وهي كل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص، والأفكار، والأشياء، هي حقيقة ميتة. وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة، كلمة ميتة مدفونة في نوع من المقابر، نسميه القاموس"³⁶. والأفكار الميتة - أيضاً - هي "ما يجول بأنفسنا من أفكار فقدت الحياة... وهي أخطر من "الأفكار القاتلة"؛ لأنها منسجمة مع عادات المجتمع وتعمل مفعولها في كيانه من الداخل، بعد أن تمكنت من "تراثه الاجتماعي" فأصبحت جزءاً من نسيجه تكون فيه الجراثيم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وتستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفع الذاتي فيه"³⁷. أما الفكرة المميتة: فهي الفكرة التي فقدت هويتها وقيمتها الثقافيتين بعدما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمها الأصلي³⁸.

ويرد مالك بن نبي حالة الازدواجية المعرفية و الاضطراب الفكري في العالم الإسلامي إلى هذا النوع من الأفكار التي تنازعت العقل المسلم في غياب رؤيته الكلية عن التفعيل في المجال الثقافي والفكري و القيمي. "فكل ما يسود المجتمع الإسلامي من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسة إنما هو نتيجة ذلك الخليط من الأفكار الميتة، تلك البقايا المصفاة، ومن الأفكار المستعارة، تلك التي يتعاطم خطرهما كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوروبا"³⁹.

2- الأفكار الممرضة:

وهي الأفكار التي تنقل الأمراض الاجتماعية من جيل إلى آخر، وتقوم بدور الجراثيم الناقلة للأمراض الاجتماعية هذه الجراثيم الخاصة أفكار معدية، أفكار تهدم كيان المجتمعات أو تعوق نموها⁴⁰.

3- الفكرة الوثن:

تنتج الفكرة الوثن عن حالة الخلل في التوازن في العالم الثقافي، "الذي تولّد فيه المغالاة نوعاً من الطغيان: ويتأصل بدوره حينما لا يكون عالم الأشخاص على وجه عام هو الذي يستقطب النشاطات الثقافية؛ بل بوجه خاص فإن شخصاً معيناً هو الذي يستقطب. في هذه الحالة هنالك قضية اختلال أساسي للتوازن، تكون معه العلاقة بين الفكرة والشخص مرتبهة لشخص يستحوذ

لصالحه على سائر الروابط القدسية في عالم الثقافة. والواقع أن هذه العلاقة تمازجها الأسطورة، وتصبح مخادعة في شكلها المتطرف إذ تغدو الفكرة - الوثن⁴¹. أطلق القرآن الكريم تسمية الجاهلية- أي الجهل- على الوثنية التي سيطرة على الجزيرة العربية قبل الإسلام لم تكن تلك الجاهلية فقيرة في صياغة الأدب، فقد حفلت هذه الفترة بألمع الأسماء. لكنها ظلت تسمى الجاهلية أي عصر الجهالة؛ لأن علاقاتها المقدسة لم تكن مع أفكار وإنما كانت مع أوثان الكعبة... وإذا كانت الوثنية جهالة فالجهالة بالمقابل وثنية وليس من قبيل الصدفة أن الشعوب البدائية تؤمن بالأوثان والتمايم. هذه الجدلية تحدد طبيعة علاقة الفكرة - الشخص؛ التي تنقلب عند التطرف إلى علاقة فكرة - وثن⁴².

4- التقاليد:

إن لكلمة (تقاليد) في اللغة العربية سحراً آسراً، فهي تستر خرافات المتصوفة وخزعاتها بستار الإسلام الجليل. فأية مقارنة لتلك التقاليد بالإسلام، ينبغي أن تنقي الثقافة الإسلامية من تلك المقدسات الوهمية التي تسمى (تقاليد)⁴³.

5- الماضوية:

ويقصد بها، اتجاه الثقافة إلى امتداح الماضي بما يحولها إلى ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام؛ بل ينتكس إلى الوراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سبباً في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي. كأنما قد أصبحت متفلساً له⁴⁴.

6- الحرفية/ اللفظية:

الحرفية ويقصد بها: الغرام بالكلمات وكما يصفه مالك بن نبي أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر فهو - أي الغرام بالكلمات: أولاً وقبل كل شيء يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر ضروري لكل جهد إيجابي من أجل البناء⁴⁵.

لقد أصبح للكلمات العربية وقعاً وجاذبية لا تقاوم على عقل ما بعد الموحدين، فقد نتج عن ذلك أن صارت العربية مؤهلة لا تقبل التطور، وأحال تقديس أهلها لها تصريحها إلى شيء لا يمسه التطويع، مقتصر على خمسة عشرة صيغة، حتى ليعد من الكفر خلق صيغ جديدة بإضافة زوائد مناسبة على الرغم من أن ذلك ممكن جداً في روح اللغة نفسه... فلا غرابة إذن أن نرى الفكر العربي، لم يعد يعرف معنى الفاعلية، فإن استبداد الألفاظ والصيغ به يخلع على أي تفسير للنهضة طابعاً سطحيّاً⁴⁶.

7- النزعة الكمية:

وتعني "تعود المرء النظر إلى فاعلية الشيء وإلى قيمته من خلال "الكم" أو "العدد"⁴⁷.

8- التكديس:

يلخص مالك بن نبي أزمة العقل المسلم في ظاهرة التكديس التي اعتبرها أثراً من آثار عصر التراجع الحضاري للفكر الإسلامي الذي أصبح "عاجزاً عن إدراك حقيقة الظواهر فلم يكن يرى منها سوى قشرتها؛ وأصبح عاجزاً عن فهم القرآن، فاكتمى باستظهاره، حتى إذا انهالت منتجات الحضارة الغربية على بلاده اكتفى بمعرفتها إجمالاً، دون أن يفكر في نقدها، وإذا كانت الأشياء قابلة للاستعمال، فإن قيم هذه الأشياء قابلة للمناقشة، ومن ثم وجدنا المسلم لا يكثر بمعرفة كيف تم إبداع هذه الأشياء، بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها، وهكذا كانت المرحلة الأولى من مراحل تجديد العالم الإسلامي، مرحلة تقتنى أشكالاً دون أن تلم بروحها؛ فأدى هذا الوضع إلى تطور في الكم، زاد في كمية الحاجات دون أن يعمل على زيادة وسائل إشباعها فانتشر الغرام بكل ما هو مستحدث في جميع طبقات المجتمع"⁴⁸. "...هذا الاستعداد في العالم الإسلامي لجمع منتجات مستعارة، يدلنا على ما تتم به الحركة الحديثة من طابع بدائي. إذ ليست الحضارة تكديساً للمنتجات، بل هي بناء وهندسة. فلو أننا قصرنا نظرنا على عناصر الحضارة ومنتجاتها فلن نرى حتماً بناء المجتمع الغربي؛ لن ندرك ما ترمز إليه تلك الفضائل الدائمة المتجسدة في العامل، والفنان، والعالم، والفلاح البسيط على حد سواء، بل سنخضع بما تدل عليه أشكالها المؤقتة كالبطائرة والمصرف"⁴⁹.

9- الذرية:

من لوازم العقل العاجز عن التعميم، وليست خاصية فطرية من خواص العقل العربي؛ بل هي طراز من طراز العقل الإنساني عامة عندما يقصد عن بلوغ درجة معينة من التطور والنضج، أو عندما يفوتها، وبعبارة أدق يقع العقل المعمم في التطور التاريخي بين مرحلتين من مراحل الذرية: فالفكر غالباً ما يكون ذرياً في خطواته الأولى، كما كانت الحال في أوروبا قبل (ديكارت) وكما صار إليه الحال بعد عصر بن خلدون في العالم الإسلامي، عندما توقف كل جهد عقلي⁵⁰.

والذرية بهذا المعنى تعني: صعوبة أو استحالة إقامة بنية عقلية، إنما تمثل الانعكاس البسيط لافتقار عالمنا النفسي لبعد معين هو بعد الفكرة. كما يمكن أن تفسر لنا الذرية - أيضاً - عدداً من المشاكل المتعلقة بالبلدان الإسلامية، وخاصة نزعة (التكديس) والتي اعتقدنا بها ما لو كان (البناء)، يمثل مرادفاً (للتكديس) المعدات والأشياء⁵¹. والذرية على نقیض ما خلفه التراث الثقافي

في الحضارة الإسلامية للحضارة الحديثة، ويظل شاهداً على ما كان يتصف به الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية، فلقد اتسم كفاحه في مجالاته كافة بالإحساس (بالقانون) وهو يستلزم القدرة على التركيب، فوضعت النظريات القانونية وبنائها الفقهاء على قواعد (الأصول). وهكذا نجد التشريع طابع نظام فلسفي يقوم على مبادئ أساسية، بينما لا يعدو القانون الروماني أن يكون مجموعة من الملفقات القانونية العفوية ليس بينها رباط عقلي⁵².

10- الالفاعلية:

ومن صور انعدام الفاعلية كما يصورها مالك بن نبي "ارتباط الفكرة بالترف العقلي وليس بالنشاط الاجتماعي" ويرسمها بن نبي في صورة رجل يمتلك فكراً خصيباً، لكن لديه ذوقاً خالطه الترف العقلي، فهو لا يتخيل الفكرة كمثال تنسج عليه ضروباً لنشاط اجتماعي، بل هي لديه لون من الترف يخلق المسرة، وغرام بالأفكار. ويصف-مالك بن نبي- هذا الفكر بأنه "ليس مصنعاً تتحول فيه الأفكار إلى أشياء؛ بل هو مخزن تتكدس فيه الأفكار بعضها فوق بعض⁵³.

والمظهر الثاني للالفاعلية هو عجز المنطق العملي -في المجتمع الإسلامي ويصفه مالك بن نبي بأنه "أمر متوقع؛ لأن العجز في الأفكار، يخلق أو ينتج في المجال النفسي عجزاً في "المراقبة الذاتية، وفي مراجعة النتائج"⁵⁴. ذلك العجز في منطق تفكيرنا هو الذي "لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية، و "نتائجها" من ناحية أخرى. ومفهوم (المحصول) لا وجود له في تربيتنا الأولى، إذ هو لا يكون جزءاً من عالم أفكارنا". بينما المجتمع هو جهاز التحويل، الذي يحول الطاقات الاجتماعية إلى نتائج مختلفة... والواقع أننا عندما نحلل بعض النشاطات النموذجية في المجتمع الإسلامي، نلاحظ أن (التبديد) هو الغالب في معظم الأحيان على (المحصول)⁵⁵.

ويرى مالك أن المقياس الأساس الذي يمكن أن نقيس به انعدام الفاعلية في المجتمع الإسلامي يتمثل في معيارين: الأول، حساب ميزان النتائج الإيجابية (لعالم الأفكار) ، والمعيار الثاني، مدى قرب أو ابتعاد الأفكار المتداولة عن الأفكار الأساسية أي أفكار النموذج المعرفي المطبوعة من رسالة الوحي أو كما يسميه مالك بن نبي (أفكار العالم الثقافي الأصلي).

والجانب المرضى للأفكار المقطوعة عن نموذجها؛ تنقل العدوى الاجتماعية من جيل إلى جيل عبر امتصاص هذه الأفكار حين تتفصل عن نماذجها في عالمها الثقافي الأصلي. " إذ تصبح هذه الأفكار حينئذ الجراثيم التي تنقل الأمراض الاجتماعية. وفكرة تحمل هذه الصفة : هي دائماً فكرة خانت نماذجها المثالية. ويرتد المرض على المجتمع الذي يتحمل نتائج كل انحراف يمس عالمه الثقافي. وأحياناً تحدث الفكرة المخدولة ردة فعلها في نهاية الأمر عندما يكتشف زيفها"⁵⁶.

11- الأفكار القاتلة:

الجانب المرضى في "الثقافة" هو "الأفكار القاتلة" التي نستعيرها من الغرب⁵⁷. والتي يلتقطها وعى عصر ما بعد الموحدين من نفايات العواصم الغربية، والتي يتم توليفها في العصاراة الثقافية للمجتمع الذي يمتصها. والنتيجة بكل تأكيد تعفن. ومن الواضح أنه إذا كانت الأفكار التي تستورد من الخارج هي - أيضاً - مميتة في وسطها الأصلي؛ فإنها ستلعب في مجتمعنا الدور نفسه وتعطى النتائج نفسها على الصعيد الاجتماعي، أي مجرد فساد⁵⁸. ويلقي مالك اللوم ليس على الأفكار التي يتم استيرادها ولكن على العقل الذي يستورد هذه الأفكار دون وعي ذاتي "إن المسئول عن الأفكار القاتلة ليس مضمون الثقافة الغربية الذي يتضمن فعلاً هذه الأفكار الخطيرة، ولكن اتجاه فكر ما بعد الموحدين الذي يدفع هذه النخبة إلى انتقائها... وعليه فإن "الأفكار القاتلة" التي نجدها في مضمون الحضارة الغربية ما هي إلا إفرازاتها وجانبها الميت، الجانب الذي يمتصه فكر ما بعد الموحدين في جامعات العواصم الغربية"⁵⁹.

إن مضمون الأفكار القاتلة يحمل بعدين مهمين يمثلان إشكالية العقل المسلم وأزمته الحضارية وهما التغريب والجمود والذي يعتبرهما مالك بن نبي وجهان لعملة واحدة. يذكر مالك حول هذين البعدين "أننا نجد أحياناً دور "الأفكار الميتة" ودور "الأفكار القاتلة" يتمثلان في شخصية واحدة، تمثل المظهرين، لأنها تحمل الجرثومة الموروثة في كيانها، تلك الجرثومة التي "تمتص" بطبيعتها، على صورة ما، الجرثومة المستوردة وتقرها كذلك في المجتمع الإسلامي المعاصر"⁶⁰. ويرى مالك أن الأفكار المستعارة "لا نستطيع تطبيقها في سياق حياتنا، وإنما نقلدها في الصورة التي يطبقها فيها غيرنا في حياته، وهذا يجعلنا نزهد في استخدام كل إمكانياتنا في بناء اقتصادنا، لأننا نريد أن نقلد اقتصاد الآخرين كما يضعونه بوسائلهم الخاصة المتطورة التي ليست في متناولنا في مرحلة تطورنا، وهكذا يضيع علينا بعض إمكانياتنا حين لا ندرك قيمتها وراء الكلمات التي أولى بها الاختصاصي الذي خطط لنا، وهكذا يضيع الوقت - أيضاً"⁶¹.

ويضيف مالك بن نبي، بأن الأفكار المستعارة وإن كانت ناجحة في بلدانها الغربية، فهذا النجاح مشروط بـ "الظروف النفسية والاجتماعية" الذي نشأت فيه ونبتت في بيئته، إن الإطار الثقافي والوسط الاجتماعي الذي تلتقي فيه أفكار المجتمع من ناحية ونشاطاته المحلية لاحتياجاته من جهة أخرى فتخرج أفكار النهضة، إنه بعد الخصوصية الحضارية الذي غاب ويغيب عن رؤى "المستوردين" لهذه الأفكار. "إن جميع أنواع الحلول ذات الصيغة الاجتماعية التي نقتبسها عن بلاد أخرى ثبتت لها صلاحيتها، هي صحيحة في هذه البلاد على وجه التأكيد، ولكنها تقتضي عند التطبيق في بلادنا عناصر مكملة لا تأتي معها، ولا يمكن أن تأتي معها، لأنه لا

يمكن حصرها. ولا يمكن فصلها عن المحيط الاجتماعي في بلادها، أي لا يمكن فصلها عن روحها⁶².

ثانياً: منهجية "التحلية" أو سبل المخرج من الأزمة (متطلبات التمهيد للإمكان الحضاري)

الشرط الأساسي عند مالك لتحقيق الإمكان الحضاري هو "تكوين الإنسان المسلم الحامل لرسالته الاستخلافية والكونية" أي تجاوز حاله "التخلف" عن القيام بأعباء الرسالة بالانتقال إلى حالة "الأداء". وفي ضوء هذا الشرط يُعرف مالك بن نبي النهضة بأنها "ما يبذله العالم الإسلامي من جهد في الميدان النفسي، وهي حركة ضميره ليتدارك تخلفه عن الفكر القرآني، وعن ركب الفكر العلمي الحديث"⁶³. ومنهجية مالك في التحلية تتمثل في التهيئة للشروط النفسية والزامية الواجب توافرها لتحقيق شرط الإمكان الحضاري، وتتمثل هذه الجوانب فيما يلي:

1- إصلاح نظام الأفكار / ومناهج التفكير:

ينطلق مالك بن نبي من عالم الأفكار والفكرة كمؤهل حضاري، يرد إليها كل حركة المجتمع وحالته في مستوى الحضارة أو درجاتها؛ لذلك فهو يعول على إصلاح عالم الأفكار ومنهجية التفكير كمعامل أساس للبناء الحضاري. "إن تنظيم المجتمع وحياته وحركته، بل فوضاه وركوده وخموده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع، فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدل في نفس الاتجاه. إن الأفكار تُكوّن في مجموعها جزءاً هاماً من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أن مختلف مراحل تطوره هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري"⁶⁴.

والأفكار وفقاً لهذه الرؤية يمكن أن تكون من عوامل النهوض، أو معوقاته، لأن عالم الأشياء - أيضاً - داخل المجتمع يستند في تطوره - أيضاً - إلى عالم الأفكار. وهذا الذي جعل مالك بن نبي يؤكد أن "الرأسمال الفكري لبلد ما جوهري بالنسبة له بقدر أو أكثر مما هو جوهري رأسماله بالدينار، أو رأسماله بالدولار، أو البترول"⁶⁵.

و يميز مالك بن نبي في نظام الأفكار بين خاصيتين هما: الأصالة والفعالية، وخطأ الفكرة وصوابها ودور المفكرين تجاه هذه الأركان الأساسية للفكرة "فالفكرة الأصيلة لا يعنى ذلك فعاليتها الدائمة. وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة. والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة. وتلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم حينما يصبح هذا الخلط في أيدي المتخصصين في الصراع الفكري وسيلة لاغتصاب الضمائر"⁶⁶.

إن الأصالة ذاتية وعينية وهي مستقلة عن التاريخ. والفكرة إذ تخرج إلى النور فهي إما صحيحة أو باطلة وحينما تكون صحيحة فإنها تحتفظ بأصالتها حتى آخر الزمان. لكنها بالمقابل

يمكن أن تفقد فعاليتها وهي في طريقها؛ حتى ولو كانت صحيحة فلفاعلية الفكرة تاريخها الذي يبدأ مع لحظة (أرخميدس) حينما تأتي دفعتها الأصلية لتهز العالم، أو يعتقد فيها نقطة ارتكاز ضرورية لقلب ذلك العالم⁶⁷. وبصفة عامة حين تبصر النور الأفكار التي صنعت تاريخ العالم؛ فإنها دائماً فعالة طالما أنها أثارت العواصف وشيدت شيئاً أو هدمته، أو أنها اكتفت بقلب صفحة من صفحات التاريخ الإنساني وليست هذه الأفكار بالضرورة صحيحة بأكملها فالفكرة تكون صحيحة أو باطلة في المجال العقدي والمنطق العلمي والاجتماعي؛ لكن تاريخها لا يعتمد على خاصيتها الذاتية، بل يستند إلى تفجرها، على قدرتها داخل عالم ثقافي، وأخيراً على قوتها داخل الإطار العام الذي توجد فيه⁶⁸.

ويميز مالك بين مستويين في عمل الأفكار: الأول، يساعد في القدرة على تحقيق تكيف الطاقة الحيوية (التشريع) ووضع هذه الطاقة على عتبة الحضارة. أما المستوى الثاني للأفكار، فإنه يقوم بتطويع المادة لحاجات الحضارة وتعتمد قدرة الأفكار الأولى في درجة التحول ومدته على المصدر المقدس أو الزماني للعالم الثقافي الذي ولد في المجتمع الجديد⁶⁹.

إن تقليل الفجوة بين المجتمع الإسلامي المعاصر وبين نمودجه الأصلي إلى حد الانطباع لهذا النموذج المثالي هو السبيل الوحيد للإمكان الحضاري عند مالك، هذا بعد التأكد من تنقيته من العوامل الزمنية وغيرها لنستخرج منها الأصل لا الصورة. ويشير مالك بن نبي إلى منهجية إصلاح نظام تفكيرنا، والتي تتصل بعالم الثقافة، ويرى أنه من الضروري تحديد ثلاثة محاور أساسية:

- ما يتصل بالثقافة التي نريدها.

- ما يتصل بـ(لا ثقافة) موروثة نريد تصفيتها.

- ما يتصل بشئ نسميه (ما ضد الثقافة) .

وفي ضوء هذه الرؤية لمالك بن نبي التي تقوم على درس فقه الواقع (بالثقافة التي نريدها) وتحديد منهجية للتعامل مع التراث (لاسيما حال تصفية (الأفكار القتالة والميتة)، يمكن أن نشير إلى بعض المضامين التي يتطلبها إصلاح منهجية التفكير ومنها:

أ - تحديد المنطلقات الأساسية للرؤية الكلية التوحيدية، ومقاصدها الكونية: التوحيد والتركيبية والعمران، وما ينبثق منهما من نظام قيمي إنساني (المساواة والعدل والحرية) للوقوف على الملامح الأساسية لعملية التكوين الفكري. و هذه المنطلقات وتلك الرؤية وذلك النظام القيمي تستمد مضامينها الفكرية والمنهجية من القرآن .

ب - ضرورة التمييز بين مصادر التكوين الفكري بين المصادر الأصلية (الوحي: القرآن، وصحيح السنة وطرق التعامل والتلقي بين كلا منهما) و المصادر المشتقة التي تمثل التراث الفكري الإسلامي الذي نتج من الفهم البشري (المرتبط بمتغيري الزمان والمكان)، و بين الروافد الفكرية المتعددة التي تأثر بها الفكر الإسلامي القديم والمعاصر .

2- تأسيس شبكة متماسكة للعلاقات داخل المجتمع:

الشرط الثاني الضروري لتوفير الشروط النفسية والزمنية للإمكان الحضاري عند مالك يتصل بحالة بناء المجتمع، وعلاقاته البينية الاجتماعية والتي تقاس بدرجة تماسكه أو تفسخه، ويعول مالك على شبكة العلاقات في فاعلية نظام التفكير وتأثيره " إن فاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات، أي أننا لا يمكن أن نتصور عملاً متجانساً من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالاً ومؤثراً"⁷⁰.

ويطرح هنا مالك بن نبي منهجية للمعالجة على طريقة الطبيب "طبيب الحضارة"، هذه المنهجية تتحدد في استعادة قيمتين "الأولى: خاصة بشبكة العلاقات الاجتماعية/ الثقافية التي لا يمكن لمجتمع ما أن يؤدي نشاطه المشترك بغيرها، والتي تؤلف عناصره المختلفة الزمنية، والنفسية...والثانية: القيمة الثقافية لهذه العلاقات التي يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع"⁷¹.

ويعتبر مالك بن نبي شبكة العلاقات الاجتماعية مؤشراً لنمو المجتمع؛ لأن تأسيس شبكة العلاقات واكتمالها هو أول عمل يؤديه المجتمع في طرق تغيير نفسه، وعلى هذا يقرر مالك أن تأسيس شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده.* وتنشأ شبكة العلاقات بفضل العلاقة الروحية بين الله والإنسان والتي تربط بدورها بين الإنسان وأخيه الإنسان، وميلاد هذه العلاقة يظهر في صورة القيمة الأخلاقية. وعلى هذا يمكننا أن ننظر من الوجهة التاريخية على أنها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد"⁷².

وهذا كان شكل المجتمع الإسلامي الأول مجتمع (البنيان المرصوص)، حيث يميز مالك بن نبي في شكل المجتمعات بين نوعين، يقوم أحدها على فكرة الطوايق المتعددة، ومجتمعات يقوم بناؤها على فكرة " الحجر الواحد" أو "الطابق الواحد"، والمجتمع الإسلامي من هذا النوع الثاني والذي يتمثل حديث النبي ﷺ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

يركز مالك بن نبي على المفهوم النقي للأمة وكيف أن التفائها في نسيج واحد شبكة العلاقات الاجتماعية" رهن الإصلاح والنهضة حيث يكون هذا النسيج شبكة أخرى على نفس

القدر والأهمية هي "شبكة العلاقات الثقافية". إن إحياء مفهوم "الأمة" وإعادة بناؤه يمثل المنطلق الأساسي للبناء المنهجي والفكري للمشروع الحضاري الإسلامي، ذلك المفهوم الذي مزقته "الدولة القطرية" في القرن العشرين و "العولمة" في القرن الحادي والعشرين .

3- إصلاح مناهج التربية:

ومنطلق الإصلاح هنا هو غاية النموذج المعرفي ونواته عند مالك بن نبي ويتمثل في العنوان العريض لمشروعه الفكري "تكوين الفرد المسلم الحامل لرسالته في العالم"، وهذا يتطلب:

معرفة الإنسان معرفة متعمقة ، وتحديد إدراك إمكانياته ونقائصه، وتقصياً واعياً للقيم الاجتماعية في الإسلام، باستخدام العلوم النفسية والاجتماعية باعتبارها ضرورة للكشف عن القيم الجديدة للنهضة الإسلامية...ومعرفة أين ينبغي إحداث التغيير الضروري⁷³.
تهيئة المحيط اللازم، والبيئة المناسبة لتربية الإنسان في ضوء مفهوم التربية الاجتماعية الذي يقوم على "تغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكون شبكة العلاقات التي تتيح أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ⁷⁴.

التربية الإيمانية الفاعلة، ويقصد بها تحويل الإيمان من النزعة الفردية إلى النزعة الاجتماعية. "لأنه حين يصبح الإيمان إيماناً جذاباً دون إشعاع، أي نزعة فردية، فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، إذ يصبح عاجزاً عن دفع الحضارة وتحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة، ويتخلون عن واجباتهم ومسئولياتهم، كأولئك الذين لجئوا إلى صوامع المرابطين منذ عهد ابن خلدون⁷⁵.

تجديد درس تعليم العقيدة وتعلمها، من جوانب إصلاح مناهج التربية تجديد المفاهيم وتغيير الوسائل لاسيما فيما يتعلق بالدرس العقدي، ويطرح مالك عنواناً جديداً يتعلق بالدرس التعليمي والتربوي للعقيدة مفاده أن الأمر في درس العقيدة "لا يتعلق في تلقين المسلم أو إعادة تلقينه عقيدته، ولكن في تعليمه استخدامها وفعاليتها في الحياة⁷⁶.

4- تأسيس مراكز لاستقطاب التفكير:

تجديد الدرس المعرفي وبعثه في كل جيل وكل عصر أمر من الضرورات الحضارية التي لا مفر منها أمام حركة التجديد والبناء، والذي يقوم بهذا الدور الإحيائي والتجديدي هو ما اسماء مالك "مراكز استقطاب التفكير"، والتي تطلع بدور الإشعاع الفكري والثقافي بما يساهم في تحديد إطار عام وكي للعقل الجمعي في هذا العصر أو ذاك، ينطلق من الرؤية الكلية المستمدة من الوحي والفكر الإسلامي الراشد "إن لكل جيل مراكز تفكير معينة، تحددها ضرورات الحياة وروح العصر، أي الفلسفة العامة التي تسيطر على الأفكار، لا في مستوى النخب المتقنة

فحسب؛ بل في مستوى الجماهير، فتتكون هكذا نقاط التقاء وتقاطع للتيارات الفكرية التي تعبر عن روح العصر⁷⁷.

5 - العناية بالعلوم الاجتماعية:

إن العناية بالعلوم الأخلاقية والنفسية والاجتماعية تعد اليوم أكبر ضرورة من العلوم المادية، لأنها تعد خطراً في مجتمع ما زال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم، ومعرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق كثيراً من صنع محرك⁷⁸.

6 - إدراك السنن الكونية (في النهوض والهبوط):

يتحتم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر إلى مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا، وما يعتورنا من عوامل الانحطاط وما ننطوي عليه من أسباب التقدم. فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا... يجب التأمل في سنن التاريخ التي لا تتغير كما أشار عليها القرآن الكريم⁷⁹. [سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا] {الأحزاب: 62}

7 - الدفعة القرآنية والأفكار الدافعة:

مفهومان يراوحيان فضاء الإمكان الحضاري عند مالك بن نبي هما: الفكرة الدافعة، والدفعة القرآنية، وهما حقيقة في البناء التربوي عملة واحدة لها وجهان "الفكرة الدافعة للنشاط الإنساني الذي يحول هذا الإمكان إلى تحقق، إن المعجزات الكبرى في التاريخ مرتبطة دائماً بالأفكار الدافعة، والفكرة الدافعة في الإسلام نقلت شعلات الجمر المضيئة منذ أربعة عشر قرناً من الجزيرة العربية إلى الأقطار البعيدة، موحدة جميع الشعوب الإسلامية في ذلك العمل المنسق الرائع، ألا وهو الحضارة الإسلامية"⁸⁰. ومن ناحية أخرى فإن الدفعة القرآنية هي التي تحقق نقلات الأفكار وتجعلها دافعة بقوة ما تحتويه من طاقة علوية تتشابه مع طاقة الأرض في الإنسان فتتحقق اللحظة الدافعة "وللفكرة الدافعة لحظتها كذلك، إنها اللحظة التي يكون إسقاطها على نشاطنا، هو بالضبط الصورة الكاملة لنموذجها في عالمها الثقافي الأصلي. فقدرتها على (توجيه - توظيف) الطاقة الحيوية تكون في أوجها في تلك اللحظة على الأخص"⁸¹.

وتفصيلاً، اهتم مالك بن نبي بالدرس المعرفي القرآني ودوره في تشكيل البنية المعرفية للإنسان في المجتمع الجديد، و الذي استطاع صياغة مفهوم "العلم" بتصور متكامل، بدءاً من تهيئة المناخ إلى إنتاج العلوم والمعارف. ويرى مالك أن العلاقة بين الدفعة القرآنية والدفعة العلمية شديدة الارتباط والاطراد، بصورة مختلفة عما كان في الكتب السابقة. "فبينما ينفتح كتاب العهد القديم، منذ السطر الأول في سفر التكوين، على عالم الظواهر المادية، وينفتح كتاب

العهد الجديد في إنجيل يوحنا على عملية التجسيد يفتح القرآن على الجانب العقلي⁸². [اقرأ باسم ربك] {العلق:1}

لقد تغيرت كل ملامح المجتمع النفسية منذ نزول "اقرأ" تغيراً بتولد عنه المناخ العقلي الجديد، وبالإضافة إلى ذلك نرى نوعاً من الاختبارات تجري على هذا المناخ لتوضح أكثر ملامحه في الضمير الإسلامي الناش عندما يلقي عليه القرآن مثل هذا السؤال : [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] {الزمر 9} إن هذه الآية اختبار وتركيز في الضمير الإسلامي لقيمة العلم، ولفضل رجل العلم على الجاهل في المجتمع الجديد⁸³.

ويناقش مالك بن نبي في ضوء العلاقة بين الدفعة القرآنية والدفعة العلمية والإمكان الحضاري إشكالية "الإسلام والعلم" وهي القضية التي أثّرت في العقل المسلم منذ عصر النهضة الأوروبية في القرن الثامن عشر، وظهور مفاهيم العلمانية وفصل الدين عن شؤون الحياة والعلوم والمعارف، والتي استرعت انتباه وانشغال كثير من مفكري القرن الـ 19، الـ 20 في العالم الإسلامي.

وفي هذا الصدد يؤكد مالك بن نبي "أن الصدمة التي حصلت للضمير الإسلامي في القرن التاسع عشر والعشرين تجاه الحضارة الغربية، كانت محسوسة في عالم أفكارنا على وجه الخصوص، وفي مجال الأفكار العلمية بالذات، بحيث كان لهذه الصدمة أثرها حتى في ميدان تفسير القرآن، مثل تفسير طنطاوي جوهرى الذى يعزى قطعاً إلى هذا التأثير العلماني على أفكارنا، مع الملاحظة أنه يعبر في الوقت نفسه على ظاهرة التكديس، تكديس المعلومات بحيث يصبح هذا العمل الشاق كله أقرب إلى دائرة معارف منه إلى تفسير القرآن، كما أنه يعبر عن ظاهرة جديدة، هي تلك العلمانية العقيمة التي ليست بالنسبة للفكر الإسلامي إلا عملية تعويض في الميدان الذى شعر فيه أكثر بتحدي الحضارة الغربية"⁸⁴.

ويقدم مالك بن نبي طرحاً لمعالجة هذه الإشكالية "في صورة تتماشى أكثر مع سمو الدين ومنطق العلم، بحيث لا نصبح نبحت في الآيات هل ذكر فيها شئ عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة، وإنما نتساءل هل في روحها ما يعطل حركة العلم، أو على العكس ما يشجعها وينميها. يجب على وجه الخصوص أن نتساءل إذا ما كان يستطيع القرآن أن يخلق في مجتمع ما المناخ المناسب للروح العلمي، وأن يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية لتقبل العلم من ناحية ولتبليغه من ناحية أخرى"⁸⁵.

إن القرآن الكريم لم يأت قطعاً، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجدير الذى يتيح للعلم أن يتطور.... إن تطور العلم لا يناط بالمعطيات العملية

فحسب، بل بكل الظروف النفسية و الاجتماعية التي تتكون في مناخ معين، والأمر الجدير بالملاحظة - أيضاً - هو أن مراكز الاهتمام بالعقل تتغير من عصر إلى آخر، من حضارة إلى غيرها حسب التغيرات التي تحدث في المناخ العقلي بالذات⁸⁶.

.. وهذه هي الزاوية بالذات التي نقدر منها العلاقات العامة بين الإسلام والعلم، فموقف الإنسان المسلم أمام عالم الظاهرات، والمنحدر الذي تتبعه العقلية الإسلامية تحت دفعة النص القرآني، والمناخ العقلي الجديد الذي ستطور فيه هذه العقلية، هذه الأشياء هي بالتالي العناصر الأساسية للقضية فحسب⁸⁷ " التي تدعم البناءات العقلية التي أنشأها القرآن في الفكر الإسلامي الذي ينطلق محصناً، ومزوداً، وموجهاً للقيام بمهمته العلمية والسياسية والاجتماعية⁸⁸. ويدعو مالك بن نبي إلى تجديد علاقة الأمة بالقرآن من خلال "تجدد القيمة القرآنية في ذاتها، أي أن تصبح قيمة ناشطة ووسيلة فنية لتغيير الإنسان"⁸⁹. وهذا يتطلب من ناحية أخرى إلى تجديد علاقة المسلم بالقرآن وتعامله معه، وذلك عن طريق "تنظيم تعليم القرآن، تنظيماً يوحى معه من جديد على الضمير المسلم الحقيقة القرآنية، كما لو كانت جديدة نازلة، من فورها من السماء على هذا الضمير"⁹⁰. "وفي ضوء الخبرة الحضارية لتعامل الجيل الحضاري الأول في الإسلام مع القرآن بما حقق بصورة كاملة فعالية الفكرة الإسلامية في المجتمع الإسلامي الأول بفضل رعاية الفكرة القرآنية، لا على أنها مفاهيم تدرس وتعلم على يد فقهاء الشريعة، ولكن على أنها (حقيقة) عاملة مؤثرة تجمع في نظامها مباشرة كل ما يقوم به الفرد من أعمال وإشارات"⁹¹.

ويشير مالك من ناحية أخرى إلى الدور القرآني في التحول الحضاري أو الانتقال من الجاهلية إلى التحضر بفضل ما يمتلكه القرآن من قدرة على "تنظيم الطاقة الحيوية للمجتمع وتوجيهها في العالم الثقافي الجاهلي الذي كان شبه خال من مبادئ الالتزام الاجتماعي. فمبادئه اقتصرت على بعض قواعد الشرف و شيء من الواجبات نحو المجموعة (التضامن القبلي)... وحينما حدث لهذا المجتمع تحول من المجتمع البدائي إلى المجتمع الحضاري لم يكن باستطاعة المؤرخ وعالم الاجتماع أن يلاحظ في هذه الحقبة من الزمن ظهور أي حادث جديد يفسر هذا التغيير. فالعالم الثقافي الذي ظهر مع الفكرة القرآنية قد كان الحدث الوحيد. والعلاقة السببية بين الحدثين : القرآن والحضارة بادية بشكل صارم عبر تلازمهما، فالفكرة الإسلامية هي التي طوعت الطاقة الحيوية للمجتمع الجاهلي لضرورات مجتمع متحضر"⁹². يؤكد مالك بن نبي في "النموذج المعرفي على المرجعية الذاتية للأمة وأصالتها، وينفي أن يكون "نموذج" الإصلاح خارجياً، أو مقتبساً، أو دخيلاً. وذلك لارتباط البناء الحضاري بالعوامل الذاتية (النفسية / الزمنية) الخاصة بالأمة ، لذا فإنه " لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلاً مكان أمته ومركزها؛ بل يجب عليه أن تتسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته، مع ما تقتضيه

المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعاً للجهد ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار⁹³.

إن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه؛ ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسطرة عليه من الخارج... وبكلمة علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق استقلالنا الاقتصادي والسياسي⁹⁴. والتعليل المنهجي الذي يقدمه مالك بن نبي في هذا الصدد هو "أن علاج كل مشكلة (حضارية) يرتبط بعوامل زمنية ونفسية، ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ من ميلادها عمليات التطور الاجتماعي. فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في إطار الدورة الإسلامية"⁹⁵.

والمخاطرة الحضارية هي أن تعتمد برامج الإصلاح والمصلحون أنفسهم حلولاً لمشكلاتنا الحضارية في ضوء نماذج أخرى غير النموذج الذاتي الذي يحتوى على التصورات والمبادئ والقيم والبرامج التي تأخذ في اعتبارها البعد النفسي والقيمي والزمني والحضاري لمجتمعنا وأمتنا، بالإضافة إلى الخبرة الحضارية المحققة لهذا النموذج في ضوء التاريخ. هذا النموذج يجعل المجتمع يصنع أفكاره الحضارية وفقاً لمتطلبات المرحلة التي يعيشها وفي ضوء خططها وبرامجها، "إن المجتمع يصوغ نموذجها، لا من الناحية العقلية فحسب؛ بل من الناحية العضوية أيضاً"⁹⁶. "ولقد فصلت الحضارة الإسلامية خلال ثلاثة عشر قرناً نموذجاً اجتماعياً مسلماً"⁹⁷. ويتخذ مالك بن نبي من "المجتمع الإسلامي الأول" المرجعية الواقعية / التاريخية للنموذج المعرفي التوحيدي في تحقيقه، وفي توفر شروطه النفسية والزمنية، وهذا هو دليل "التجريب" أو "التجربة" للنموذج حيث "أكدت الفكرة الإسلامية - تاريخياً - صلاحيتها في بناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه بطريقة بالغة التوفيق، وقد أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوي لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق، فجعلت منه إنساناً متحضر ومحضراً. وأظهرت فاعليتها في إعادة تنظيم وتوجيه الطاقة التي أسلمتها شبه الجزيرة العربية إلى عصر النبي ﷺ⁹⁸. واستطاعت الفكرة الإسلامية - أيضاً - تغيير الصفات النوعية الخاصة بالفرد إلى صفات اجتماعية عن طريق خلق شبكة علاقات قادرة على توحيد الطاقات الحيوية للأفراد، وتوحيدها في صورة نشاط مشترك يقوم به المجتمع"⁹⁹. وهو ما ظهر في سلوك أفرادها لاحقاً متأثراً بالمنهج التربوي الذي هيئ الأبعاد الوجدانية والمعرفية والسلوكية لإحداث هذه التحولات الكبرى في تاريخ الإنسان سواء كانت هذه النماذج في المجالات الإيمانية أو المادية أو المعرفية أو الاجتماعية * . " ومن سمات هذا النموذج تربوياً هو ذلك التجانس والتآلف في نظام الثقافة في المجتمع الإسلامي الأول الذي نجده عند "الخليفة والبدوي البسيط في : حركة الفكر والعواطف، ودوافع العمل"¹⁰⁰.

وينتقل مالك من ماضي هذا النموذج إلى حاضر تجسده ليقبس الفارق بين التجسد الأول للنموذج والحالة المعاصرة، ويرد تلك الفجوة المعاصرة إلى "الوعي" وتحديدًا غياب "وعي المسلم المعاصر" بهذا النموذج ومفرداته وعناصره؛ لذا يؤكد على ضرورة تجاوز هذه الأزمة في تشكيل وعي المسلم المعاصر، وذلك عن طريق تحديد "طريقة منهجية للإطار الاجتماعي الذي يتكون فيه وعي المسلم المعاصر"، بغية منحه أقصى مستوى شخصي ممكن¹⁰¹. هذا الإطار الاجتماعي الذي يجب أن يتشابه مع إطار "الحالة الأولى" لتطبيق النموذج في بعده التربوي و القيمي "إن نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء للقانون نفسه"¹⁰².

ونواة هذا "النموذج" عند مالك بن نبي هو "الإنسان" المستخلف القادر عبر البرنامج التربوي و القيمي للنموذج على تحقيق تجسده في دورته الحضارية الثانية المنتظرة، ومن ثم فإن الفكرة الإسلامية تغيب فعاليتها بغياب الإنسان الممثل لها، والمتجسدة فيه "قعد تناول الحضارة الإسلامية نلاحظ أنه يدخل في أطرافها بالضرورة عاملان هما : الفكرة الإسلامية التي هي أصل الأطراد نفسه و الإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة. وعليه فإنه مما ينسجم وطبيعة الأشياء، أن ندرس من حيث الأساس العلاقة العضوية التي تربط الفكرة بسندها. لأن كل القيم النفسية والزمنية التي تميز مستوى حضارة ما في وقت معين ليست إلا الترجمة التاريخية لهذه العلاقة العضوية بين فكرة معينة (كالإسلام مثلاً) والفرد الذي يمثل بالنسبة إليها السند المحسوس. وهو هنا المسلم"¹⁰³.

خاتمة : الدرس المعرفي المستفاد من فكر مالك بن نبي

أولاً: إن الوهن الفكري الذي يعانيه العالم الإسلامي هو وهن ذاتي بالأساس، نظراً لما أصاب رؤيته الكلية من تشوهات ترجع إلى عصر الجمود والتوقف الحضاري (عصر ما بعد الموحدين كما أسماه مالك بن نبي).

ثانياً: إن مشكلة العالم الإسلامي ليست في نضب أفكاره، أو عدم صلاحيتها؛ وإنما في المشكلة في تحقيق فعالية هذه الأفكار.

ثالثاً: إن المفكرين مسئولون عما حدث للعالم الثقافي من اختلال في توازنه، وعليهم إصلاح أنفسهم قبل التصدي لمعالجة الأزمة الحضارية للأمة.

رابعاً: أن أسباب الأزمة تتلخص في:

- ما ورثناه من عصر ما بعد الموحدين (أو عصر الأزمة) والذي ورثت منه الشخصية المسلمة عوامل ضعفها: من النظرة التجزئية، والنزعة الذرية، وحمل الجرائم الثقافية والحضارية للأجيال اللاحقة.
- وهن الدفعة القرآنية، وما نتج عنه من انفصال و فصام في الشخصية المسلمة بين الاعتقاد والسلوك، بين الإيمان والواقع، بين القول والعمل.
- غياب منهجية المراجعة أو المساءلة الحضارية للذات المسلمة، واستسلامها للجمود الحضاري والرضا والقناعة العقلية عن واقعها المعاش، بصورة أقرب إلى البلادة الحضارية. خامساً: سلك مالك في سيره نحو المعالجة الحضارية، المنهج التوحيدي المستمد من شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) المعروف بمنهج التخلية والتحلية.
- 1 - وفي جانب التخلية دعا مالك إلى التخلص من عناصر الأزمة والوهن الحضاري، وهذه العناصر هي: الأفكار الميتة والمميتة، والأفكار القتالة، والأفكار الممرضة، والفكرة الوثن، والتقاليد البالية، والماضوية، وحرفية الثقافة واللفظية، النزعة الكمية، والتكديس، والذرية، واللافعالية أو البلدة الحضارية.
- 2- أما في مرحلة التحلية والتي ترتبط بالجهد النفسي والفكري الذي ينبغي أن يبذله العالم الإسلامي، لتحقيق شروط الإمكان الحضاري، فقد اشترط مالك تحقيق ما يأتي:
- إصلاح منهجية التفكير مما علق به من ازدواجية معرفية ومن توقف عن مسيرة الاجتهاد الحضاري الإنساني.
- بناء رؤية حضارية توحيدية-عن طريق مشروع تربوي إصلاحي- تتضمن غرس العناصر الأساسية للرؤية التوحيدية وما تتضمنه من قيم، وهذه العناصر هي: التوحيد، والاستخلاف، والمسئولية، والجمالية، والغائية، والأخلاقية، والعدل، والإصلاح، والأعمار ...
- تأسيس شبكة علاقات اجتماعية متماسكة على نمط الجماعة المسلمة الأولى، والتي تنتج عنها بالضرورة شبكة علاقات ثقافية قوية تتجاوز حالة الجمود والتوقف، وتعبر وتتجاوز مشكلة الثقافة.
- إصلاح مناهج التربية وتجديد الدرس التعليمي الديني (فالمسلم ليس في حاجة إلى من يلقيه عقيدته، ولكنه بحاجة لمن يعلمه استخدامها وفعاليتها في الحياة.
- إنشاء مركز استقطاب التفكير في الأمة والتي تستعيد بها الأمة رؤيتها الكلية التوحيدية وعافيتها الفكرية والثقافية.

- العناية بعلوم الإنسان، وإعادة بناؤها وفقاً لرؤيتنا الكلية القرآنية، ودون ازدواج في التعاطي المعرفي لها أو إخلال في مسارات الكون التجديدية.

- إدراك السنن الكونية في الصعود والهبوط الحضاري، حتى نتمكن من تحديد موقعنا ونقطة انطلاقنا.

- تحقيق الدفعة القرآنية في مشرونا التربوي الإصلاحية التغييرية المنشود، تلك الدفعة التي تحقق بدورها " النقلة الحضارية" المرجوة. وهو ما يتطلب تجديد العلاقة المدرسية والخاصة بالدرس القرآني في الأمة.

التوصيات: يوصي البحث بما يلي:

أولاً: ضرورة عناية الباحثين بالدرس المعرفي المقارن عند التعرض للإنتاج الفكري لمالك بن نبي في ضوء الخبرات الإصلاحية لرواد الفكر الإسلامي والذين يمتلكون ذلك الإحساس الحضاري بواقع أمتهم (أي القراء المستعرضة لفكر مالك) مثال:

- المسألة اليهودية/الصهيونية عند مالك بن نبي وجمال حمدان وإسماعيل الفاروقي وحامد ربيع.

- شروط النهضة في فكر مالك بن نبي وعلى شريعتي.

- تجديد الدرس القرآني عند مالك بن نبي ومشروع إسلامية المعرفة.

إن القراءة المستعرضة المقارنة تتيح الإدراك المتكامل لقضايا الأمة وتحقيق التواصل الحضاري والانكشاف على الداء بصورة أكثر من القراءة الجزئية أو الذرية التي أشار إليها مالك، وهو ما يتيح أيضاً تحقيق أهداف حركة الإصلاح المعرفي في " إعادة تشكيل بنية العقل المسلم " وفقاً لشروط نهضته الحضارية.

ثانياً: ضرورة العناية بإنشاء مركز استقطاب التفكير أو مرصد التوجيه (وهي من ابتكارات مالك في مجال مأسسة العمل الثقافي في الأمة) تكون مهمتها تبويب وتفصيل الإنتاج الفكري لمالك بن نبي في قضايا أمتنا المعاصرة : في الاقتصاد والسياسة والتربية والثقافة، حتى يقع نشاط الأمة وحركتها في مسار نهضتها وليس في مسار آخر.

ثالثاً: ينبغي على المفكرين والمتقنين والمربين في أمتنا إشاعة مبدأ " التفاؤلية" الذي التزمه مالك في إنتاجه الحضاري رغم المأساة التي كان يعيشها حسرة على واقع الأمة فقد كان دائماً حريص على الإشارة إلى: الجيل الجديد ، الأجيال القادمة ، شفاء العالم الإسلامي من أمراضه.

رابعاً : ندعو إلى إصدار دورية تحمل عنوان (مشكلات الحضارة) مستوحاة أفكارها ومساراتها من الإنتاج الفكر لمالك بن نبي، و تفتح أفقاً للتطوير والوعي والتطوير والتشغيل لهذه الأفكار.

الهوامش :

* جامعة دمياط- جمهورية مصر العربية. hasnnaser@hotmail.com

¹ بن نبي، مالك. فكرة كمنولث إسلامي، تر: الطيب الشريف، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط2، 2000، ص34.

² بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط2، 1979، ص115.

³ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ترجمة بسام بركة، أحمد شعبو، دمشق، دار الفكر، 2002، ص77.

⁴ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، 80-83، بتصرف.

* **عصر ما بعد الموحدين** : يبدأ عصر ما بعد الموحدين بسقوط الدولة الموحدية بعد هزيمة الناصر لدين الله الموحدي في موقعه خص العقاب في الأندلس في 15 صفر (609 هـ). وقد اعتبرت هذه الموقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس على السواء. وقد ازدهرت الفلسفة والعلوم في عهد الدولة الموحدية فكان فيها ابن طفيل وابن رشد وابن باجة والوزير الطبيب ابن زهر. وفي رأي مالك بن نبي أنه بزوال دولة الموحدين في المغرب وانطواء الدولة الأيوبية المعاصرة لها في القرن الثاني عشر انتهت دورة الحضارة الإسلامية، وبدأ عصر الانحطاط رغم ما لمع من بوارق انتصارات المماليك والدولة العثمانية في الشرق والغرب. وبدأت دورة جديدة للحضارة المسيحية الغربية تبعث على أشلاء الأندلس وتأخذ إصرارها على حيث نرى نتائجها في عالمنا الحاضر. (بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص47 - 48) ومالك بن نبي هنا يختلف عن مفكرو الشرق الإسلامي الذين يرون أن أقول الحضارة الإسلامية يرتبط بسقوط الخلافة على يد العثمانيين عام 1908م].

⁵ بن نبي، مالك. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، بيروت، ط3، 1988، ص82.

⁶ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص36.

⁷ بن نبي، مالك. تأملات، دار الفكر، بيروت، 2002، ص146.

⁸ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص84.

⁹ بن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي، عبدالصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ص84.

¹⁰ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص159.

¹¹ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص160.

¹² بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ترجمة: عبدالصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر، ط3، 1986، ص43.

¹³ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص89.

¹⁴ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص159.

¹⁵ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبدالصبور شاهين، بيروت، دار الفكر، ط6، 2006، ص92.

¹⁶ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص92.

¹⁷ بن نبي، مالك. تأملات، ص133.

¹⁸ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص38.

¹⁹ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص142 - 143.

²⁰ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص128.

²¹ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص37.

²² بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص31.

²³ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص54.

²⁴ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص58.

²⁵ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص108.

²⁶ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص107.

²⁷ بن نبي، مالك. فكرة كمنولث إسلامي، ص28.

²⁸ بن نبي، مالك. شروط النهضة، ص40.

²⁹ بن نبي، مالك. شروط النهضة، ص41.

- 30 بن نبي، مالك. شروط النهضة، ص41.
- 31 بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص12.
- 32 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص83.
- 33 بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص68.
- 34 بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص68.
- 35 بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص100.
- 36 بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص153.
- 37 بن نبي، مالك. في مهب المعركة، تر: عبدالصبور شاهين، بيروت، دار الفكر، ط2، 1959، ص176-177.
- 38 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص153.
- 39 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص81.
- 40 بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص12.
- 41 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص95-96.
- 42 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص96.
- 43 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص57.
- 44 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص60.
- 45 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص58.
- 46 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص59.
- 47 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص60.
- 48 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص65.
- 49 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص69.
- 50 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص17.
- 51 بن نبي، مالك. القضايا الكبرى، بيروت، دار الفكر، 2000، ص127.
- 52 بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص66.
- 53 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص108.
- 54 بن نبي، مالك. فكرة كمنولث إسلامي، ص59.
- 55 بن نبي، مالك. فكرة كمنولث إسلامي، ص59.
- 56 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص158.
- 57 بن نبي، مالك. في مهب المعركة، ص176.
- 58 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص150.
- 59 بن نبي، مالك. في مهب المعركة، ص179.
- 60 بن نبي، مالك. في مهب المعركة، ص178.
- 61 بن نبي، مالك. تأملات، ص55.
- 62 بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص103.
- 63 بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص124-125.
- 64 بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص11.
- 65 بن نبي، مالك. من أجل التغيير، دمشق، دار الفكر، 1995، ص29.
- 66 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص102-103.
- 67 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص103.
- 68 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص103.
- 69 بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص58.
- 70 بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص38.
- 71 بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص48.

* ويضرب مالك بن نبي مثال لهذه الشبكة من العلاقات تاريخياً التي تكونت بين المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي الأول

(بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص28)

⁷² بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص56.

⁷³ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص153.

⁷⁴ بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص100.

⁷⁵ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص32.

⁷⁶ بن نبي، مالك. القضايا الكبرى، ص123.

⁷⁷ بن نبي، مالك. تأملات، ص51.

⁷⁸ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص35.

⁷⁹ بن نبي، مالك. شروط النهضة، ص48 – 49.

⁸⁰ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص47 – 48.

⁸¹ بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص59.

⁸² بن نبي، مالك. القضايا الكبرى، ص187 .

⁸³ بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، بيروت، دار الإرشاد للطباعة والنشر، 1969، ص36 .

⁸⁴ بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين، ص26 .

⁸⁵ بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين، ص26 .

⁸⁶ بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين، ص28 .

⁸⁷ بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين، ص30 .

⁸⁸ بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين، ص38 .

⁸⁹ بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص157 .

⁹⁰ بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص114 .

⁹¹ بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص109 .

⁹² بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ص51 .

⁹³ بن نبي، مالك. شروط النهضة، ص48 .

⁹⁴ بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين، ص48 .

⁹⁵ بن نبي، مالك. شروط النهضة، ص47 .

⁹⁶ بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص80 .

⁹⁷ بن نبي، مالك. فكرة كمنوليث إسلامي، ص70 .

⁹⁸ بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص107 .

⁹⁹ بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص81 .

* يضرب مالك بن نبي عدة نماذج واقعية من حياة (الصحابة) استدلاً لقدرة البعد التربوي في النموذج المعرفي التوحيدي على أحداث التغيير والتحويلات الحضارية الكبرى وهو ما يماثل عن سيد قطب ما كان يصفه بـ(جيل قرآني فريد) (انظر : بن نبي، مالك. إنتاج المستشرقين، ص38) .

¹⁰⁰ بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص50 .

¹⁰¹ بن نبي، مالك. فكرة كمنوليث إسلامي، ص67 .

¹⁰² بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ص76 .

¹⁰³ بن نبي، مالك. شروط النهضة ، ص66 .